المبحث الثامن والعشرون:

أزمة الإبداع العربي.

البند الأول : مفرزات الحدث

لقد تحدثنا سابقاً عن الواقع والحدث، وأكدنا بأنهما عاملان مهمان في المسألة الإبداعية، لأن الحدث ينعكس بتفاعلاته المتنوعة على الواقع بما فيه من مكونات، وفي مقدمة هذه المكونات الإنسان والمعروف لدى الكافة، بأن كل مجتمع وواقع يشهد أحداثاً بفعل داخلي أو بفعل خارجي أو بفعل كليهما معا.

إن الحدث يُولِد مستلزمات ويحدث حاجات، كما يُحدث متغيرات جذرية وجزئية، تستلزم الترميم و التغيير، و تستلزم إعادة الحاجات إلى سابق عهدها، ولكن هذه الحاجات قد تتطلب إعادتها بصيغ وبهيكليات، قد تختلف شكلاً وجوهراً، عن حالها السابق، مما قد يؤدي إلى إضافات جديدة عليها، أو التقليص منها جوهرياً أو شكلياً.

الأمر الذي يضع الإنسان وعقول مبدعيه، أمام حالة استثنائية تستحق بل تستلزم إعمال العقل والتفكير والتحليل والاستنتاج، في كل شاردة وواردة يأتيها الحدث، للوصول إلى نتائج مفيدة للمجتمع الذي يحتاجها ويقبلها.

وفي هذا المجال، فإني أعني بأن الملح الذي يضعنا أمام مسؤولياتنا هنا، يتمثل في الإجابة المسؤولة، التي ترتفع ومستوى الحدث بل تجتازه إلى الأبعد، ولكن بالبحث الجدي والعلمي المسؤول عن ماهية التصرف الذي يجب أن يُواجه به الحدث، الذي يقع على الواقع وعلى الإنسان، لمعرفة ماهية خصائصه أو سماته؟؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها، نرى ثمة مواقف يجب تجسيدها، نشير إلى بعضها فيما يلي:

obeikandi.com

البند الثاني: الموقف الفكري من الحدث.

إن الفكر هو الذي يمتلكه الإنسان، وبالتالي فإن التفكير والإمعان بالحدث تفكيراً وتحليلاً واستنتاجاً أمر مطلوب، غير أننا نعلم بأن المجتمع يمتلك مفكرين، واتجاهات فكرية عديدة، لابد وأن يعنيها الحدث، هؤلاء المفكرون وهذه الاتجاهات، لا تستطيع أن تكون حيادية إزاء ما يحدث، ولابد من أن يدرك أصحاب "الدلاء الفكرية "، بأن الزمن غدار والواقع جبار لا يرحم، ولا يستجيب للانتظار، وأن يعي المفكرون بأن المناخ، ليس مناخاً للعرض والطلب وطرح المضامين والوسائل وعواملها وأسلحتها، التي قد تفضي إلى التصادم، وإن أخذ البعض منهم الموضوعية وحسن النية، بينما يأخذ البعض الآخر خياراً بعيداً عن هذا المسار، الأمر الذي يستلزم من الجميع إن أمكن المبادرة والجرأة والإقدام بموضوعية وسلام، وأن يقال لمن يخرج عن الإجماع ضرورة العودة إليه .

لأن الابتعاد عن ذلك الخيار، لا بد وأن يجعل البعض يضيِّع جادة الصواب، والبعض الآخر سيخرج خاوياً أو مشوهاً أو معكراً، بل أرى بأن جميع الدلاء ستخر ج من معركتها الصدامية فاشلة خاسرة، والمجتمع هو الذي سيدفع الفاتورة الباهضة ، لأنه ليس هو زمن ومجال التصادم، حيث ينتظر الحلول التي تعبر عن حاجاته ليدعمها وبغير ذلك لن يكون مستعداً للانتظار وتحمل التجريب والنتائج السلبية، وتكهنات الربح والخسارة أمام ما يجري، لأن منطق الإبداع يقول (بالخلق لا بالفناء) يقول بتلبية الحاجات وسدها لا بتضييع الفرص وهدرها.

من هنا ندرك أهمية المنحى الذي يسلكه المفكرون، لذلك لابد للمفكرين وللفكر من التفاعل والتكامل في مواجهة الحدث، وكل حدث، ليصبح ما جرى حدثاً، و مناسبة خلّاقة للبيئة وحافزاً للمبدعين ومناخاً منمياً للإبداع ومفاعيله، ليكون مقدمة للنهوض الإبداعي الجمعي في إزالة المنغصات، وبناء الأمنيات وتحقيق المتطلبات، وأعتقد بل أؤمن بأن ذلك لو يتم تحت مظلة ((الأفكار تلقح بعضها، أو العقول تلقح بعضها)) سيُحقق جزءا هاماً من المنشود على مختلف الصعد.

البند الثالث: وحدة المسار.

أما الشرط التالي، فيتمثل في التخلي عن الهامشيات والشكليات، إلا إذا كانت تؤثر على جوهر الفعل الإبداعي والتغييري أو الابتكاري، لذلك على المفكرين أن يخطوا طريق الفعل قبل سلوكه، وبالسرعة وبالوقت الذي لا يفقد النتاج المطلوب قيمته وهويته ومفاعيله، وهذا الأمر ملزم لتجنيب المسار، المهالك والإبداع وبيئته، التشوه والتشويه وتجنيب المجتمع الهدر والنزف والتناحر، خاصة وأن الانفلات الفكري والتصرف العشوائي، والسلوك الغوغائي ينطلق من عقاله ويزداد توالده من صنفه في مثل هذه الظروف .

لهذا فإن وحدة الموقف الفكري، ووحدة الفعل والممارسة ضرورة حتمية، إن كان المجتمع ومبدعيه ينشدون الوصول إلى شاطئ السلام من محيط متلاطم.

البند الرابع: الخيار الجمعي المتجانس.

إن الخيار الجمعي المتجانس، يقع وزره على عاتق الفكر العربي، وإن عدم تحقيقه يجعل هذا الفكر والمفكرين في وضع (الجاني والمجني عليه) هذا الجاني والمجني عليه (يجب ان يدفع الثمن " إبداعا وحرقا للمراحل" ، إن صح التعبير) إن الخيار الجمعي المتجانس يستلزم " بيئة وإطار للعمل داخله، بحيث يتم الاختيار الأفضل، فكريا ومعنويا، قولا وممارسة".

لقد تأخر كثيراً الفكر العربي الإبداعي لكي يعطي أمته، ولكي يحسن الاختيار، حيث آن الأوان لذلك، فإن الحقبة التي عاشها سابقاً، لم يستطع أن يتميز التميز الخلاق المبدع، المواكب للأمم المثيلة لأمتنا، لذلك خرج فكراً لا شخصية ولا هوية له في كثير من المجالات وفي العديد من الحقب، الأمر الذي أظهره مهزوزاً، ويسير بلا هدى فلا بوصلة تهديه، وإن توفرت البوصلة كانت غير دقيقة، لأن تصميمها وضبطها لا مساهمة أساسية، ولا يد للفكر العربي في تصميمها، لذلك جاء أداؤها مهزوزاً، وفق هوى مصمميها وهوى الأحداث والهواة الذين وضعوها.

البند الخامس: فهم الماضي والعصر.

رغم إني أعترف بأن نسبة عالية من المفكرين و الناس، لا تحبذ العودة الى الماضي، وأنا بالوقت نفسه أعترف بأنني أميل كثيراً حتى الأن للعودة إلى ذلك الماضي، لماذا يسكنني هذا الحب لست أدري؟ ولكنني أريد أن أوضح، دون تبرير للقارئ، لماذا هذا الحب بيني وبين الماضي، لأن هذا الماضي يتحرك في سويداء فكري ونفسي كشريط ثر مليء ، يشدني لأنظر إلى إضاءاته التي تقول لي: ألم يبني إنساننا بالميرا وتدمر قبل آلاف السنين ؟ ألم يبني إنساننا قبل آلاف السنين في وادي الرافدين ووادي النيل؟ وقبل هذا وذاك ألم يضع إنساننا أبجدية رأس شمرا؟ وهو الذي استقبل على أرضه العقائد الروحية كاليهودية والمسيحية وخاصة الإسلام بقيادة النبي العربي محمد (ص)؟.

لذلك أخي القارئ أحب العودة إلى هذا الماضي لأنه لازال يحوز ثقتي وهو ينبوع لا ينضب.

وجهة نظر: الفكر والفعل المركب:

أولاً - إن الفكر العربي يواجه أفكاراً وتحديا ت مركبة، ورغم نزوعه السلمي والإنساني، إلا أن الآخر يرى بذلك ضعفاً وفقراً مستطيراً الأمر الذي يستلزم بالضرورة إعداد العدة المركبة لكل تحد، هذه العدة التي تحمل سماتنا ونزوعنا السلمي والانساني الذي يعادي من يعاديه ويصادق من يصادقه، وحينما نقول بالإعداد للفكر المركب القادر على التأثير والتغيير والإبداع ، نستند إلى القناعات العلمية الخلاقة، التي تعي بأن فكر ما قبل التاريخ، يختلف عما بعده ، وفكر النهضة الصناعية يختلف عن فكر النهضة التقنية والاتصالات وهكذا، الإبداع العربي و تحديات الصناعة والتجارة والاقتصاد، بشكل عام وأمام تحديات الفضاء وما بعد الفضاء، وأمام جوهر الحاجات، عدا الواقع المعاش والذي ينتظر نقلة نوعية قد تتجاوز القرون، التي سلفت لنقف الى جانب الأمم ، بل في مقدمتهم ، التي تبني ولكي نضع بصماتنا التي تحمل هويتنا وإبداعاتنا .

obeikandl.com

ثانياً - إننا حين نتطلع الى الماضي نفخر وننتعش، وبخاصة حين نتفحص الحاضر ندرك ماذا ينتظر مستقبل الأجيال، هذه النظرة المتفحصة غير الحاسدة وغير المبهورة وغير الناقلة والمقلدة بل هي النظرة التي تتطلع الى منبرها وموقعها الشاغر بين مواقع الأمم التي تتطلع إلى نزوعها الإنساني الذي ينشد التفاعل والتكامل بين الشعوب الحية التي صنعت حضارات،

حين اقرأ القرن التاسع عشر والعشرين والواحد والعشرين، تحيطني ثورة النهضة الحضارية ، وتتفاعل في كياني وأعتقد في كيان كل عربي ومسلم كيمياء وثبة غير منظورة، تريد أن تنفلت من عقالها ومن أسوارها التي طُوقت بها، وهي تدرك بأن أمتنا تريد أن تعطي مع أخواتها في الإنسانية، كما أعطت وأعطوا من قبل، حيث يجب أن يتجسد في فكرنا وسلوكنا، وأمام ناظرنا مبعوثو الله إلى البشرية مثل (موسى - وعيسى - و محمد العربي) صلى الله عليهم وعلى كل الأنبياء ، ويجب أن يتجسد أمامنا خالد وطارق وصلاح الدين وحمورابي ونبوخذ نصر ....الخ

ثالثاً - إذاً من هنا يجب أن نؤسس لمقومات فكرنا، المقومات التي تؤثر ولا تتأثر بالسلبيات، المقومات التي تؤثر بالواقع لتحيله إلى الأفضل وتؤثر بالسلبيات لتزيلها، إن الفكر الذي يستند الى مقومات تعزز الثوابت والأهداف القومية التي ننشد، بحيث يغدو هذا الفكر راشدا قادرا متفاعلا مع التقدم والخلق والإبداع، لنصل الى بناء المفكر الذي يحمل هوية امته وتطلعات مجتمعه.

رابعاً - كما أرى بأن الازدواجية الفكرية للمفكر، تشكل حالة قاتلة ، وخاصة تلك الازدواجية التي تتصل بالثوابت، وهذا الرأي لا يعني الكبت وكم الأفواه ، بل الغاية منه، أن تنتج الأمة مفكرين لهم الشخصية المميزة التي تعبر عنها وتحمل هويتها، مع علمنا وقناعتنا أن هذه المسالة، ليست مسألة تكوين خارجة عن المفكر نفسه، بل تتصل بعوامل ذاتية إبداعية وعوامل موضوعية اجتماعية وعلمية، هذه العوامل التي تسهم ببناء الشخصية الفكرية العربية الخلاقة، التي تنشد أهداف أمتها.

obeikandl.com

وقد نكرر هنا، بأن هذا الطرح لا يعني النزوع نحو التقوقع والانغلاق آخذين بعين الاعتبار(بأن هذه الفكرة قد لا نكون أول من طرحها) ولكننا نؤمن بأن الساميات في الفكر والعلم والمعرفة عندما نؤكدها ونركز عليها و نكررها، فإننا ننشد بالتكرار تعميق المفاهيم وتهذيب الخيار، خاصة وأن واقعنا الراهن أصبح يعكس حالات فكرية متنوعة ومتعددة وذات مشارب متناقضة فيما بينها ومتعارضة مع واقعنا.

البند السادس: ازدواجية المعيار.

في ضوء ما تقدم، قد لا أجد المجال ليتسع هنا للتفصيل بهذا الواقع لأننا وجدنا البعض في كثير من الأحيان، يفخر بأمته قولاً ولا يمارس هذا الفخر ممارسة فعلية، ونجده يحمل أفكاراً وعلوماً يتعصب لها و يدافع عنها -وهذا حقه - ولكن الذي ليس من حقه بل من واجبه أن يعلم بأن مالك الساميات الذي لا وطن له لاوجود لسامياته ولا لوجوده، لأن إبداعه ونبوغه وسامياته ستشكل أولاً وأخيراً، تراث الأمة والوطن الذي ينتمي إليهما، وإن غدا إبداعه عالميا فيما بعد .

لذلك ما يملكه الإنسان يجب أن يثمر ويصب في وطنه ، لأن الازدواجية التي تتعدى ثنائية المواقف، لتصل إلى أكثر من ثنائية، تشكل ظاهرة مرضية، هذه الظاهرة التي تذيب الفكر والشخصية، بحيث تجد هذا البعض قد يفقد هويته، وبخاصة أولئك الذين يرفضون الماضي وعقائده أو يستسلمون له، أولئك الذين يرفضون الحاضر ويقارنونه مقارنات سطحية، لا تمت للموضوعية والعلمية بصلة ، خاصة الذين ينبهرون في كل نتاج خارجي موجود، و كل نتاج غربي مولود، من خلال القبول غير المبني على أسس علمية يقبلها العقل، حيث نلمس بروز المظهرية في الطرح، والاستعراض لمجرد الظهور البروز.

ويبدو هنا الفكر العربي في موقع المتأثر والمتلقي، مما أفقده الابتكار والتجديد والإبداع في وضعه الراهن، هذا الموقع الذي جعله في حال ارتباك شديد أفقده أيضا التمييز بين الأخذ والعطاء، بين النقل العقل، كما غابت عنه سمة

المبادرة، لتحقيق التكامل والتفاعل الخلاق بما يملك (من علوم ومن إرث) فهو بذلك لم يستلهم المضيء من الماضي، ولم يستطع ملاءمته مع قدراته العلمية ، ويساوقه مع متطلبات المجتمع، ليفاعله بموضوعية، بما لا يسيء للماضي والحاضر، حينما يرفض الماضي بما فيه ويشتم الحاضر وما يعانيه .

obeikandl.com